ابو فراس الحمداني

٣٢٠ ـ ٣٥٧ هـ

كانت مملكة الحمدانيين تمتد بين الموصل وحلب وديار بكر. ومن اقدر رجالها ابو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان المشهور بسيف الدولة. اشتهر ـ الى جانب انتصاراته السياسية على الروم ـ بحب العلم والادب. قال الثعالبي: «لم يجتمع قطُّ بباب احد من الملوك ـ بعد الخلفاء ـ ماجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر(٩٦٩)» وذكر الغزّولي انه قد «اجتمع له مالم يجتمع لغيره من الملوك. كان خطيبه ابن نُباته الفارقي. ومعلمه ابن خالويه. ومطربه الفارابي. وطباخه كشاجم. وخُزّان كتبه الخالديان والصنوبري. ومُدّاحه المتنبي والسلامي والوأواء الدمشقي والببغاء والنامي وابن نباته السعدي والصنوبري وغير ذلك(٩٧٠)» وقد ضمت الاسرة الحمدانية مجموعة من الشعراء المجيدين. وفي مقدمتهم الامير الفارس الشاعر الحارث بن سعيد بن حمدان المعروف بأبي فراس.

سيرته:

الحارث بن سعيد بن حمدان. غلبت عليه كُنيته «ابو فراس». وهي كنية الاسد. حتى كاد لا يعرف الاّ بها. ولد في مدينة الموصل سنة ٣٢٠ للهجرة. ولم يحظ برعاية ابيه. لانه قُتل سنة ٣٢٣ للهجرة وكان والياً على الموصل من قبل الخليفة المقتدر. وتربى في بلاط ابن عمه سيف الدولة امير حلب تربيةً صالحة فيها علمٌ وأدبٌ وفروسيةٌ. وكانت امه الى جواره تنظر اليه بعطفها وحنانها.

عاش في بلاط الامارة بحلب معززاً مكرماً. يتتلمذ على خيرة الاساتذة. ويتدرب على اساليب الفروسية وفنون القتال على يد فرسان مهرة «وكان سيف الدولة يعجب جداً بمحاسن أبي فراس. ويميزه بالاكرام على سائر قومه. ويصطنعه لنفسه. ويطحبه في غزواته. ويستخلفه على أعماله» (٩٧١) وحينما أشتد ساعده وقوي عوده اتجهت نفسه وهو في السادسة عشرة من عمره الى التطلع للامارة.

---

(٩٦٩) يتيمية الدهر ١: ٣٧

(٩٧٠) مطالع البدور ٢: ١٧٦

(٩٧١) يتيمة الدهر ١: ٤٨

فقلّده سيف الدولة . بعد أن اطمأن الى قدرته في القيادة والادارة . منبج وحرّان واعمالهما جميعاً .(٩٧٣) واخذ يمدح ابن عمه بعد هذا الأمر ويشيد بمآثره . مثل قوله .(٩٧٤)

وأتبعُ فيعلتَه في كلّ أمرٍ ... وأجعلُ فضلهُ: ابداً . اماما
وقد أصبحت منتسباً اليه ... وحسبي أنْ أكون له غلاماً
أراني كيف أكتسب المعالي ... وأعطاني . على الدهْر . الذماما
وربّاني فسقتُ به البرايا ... وأنشأني فسُدتُ الأناما
فعمرهُ الاله لنا طويلاً ... وزادَ الله نعمتَه دواما

تعددت مظاهر حياة أبي فراس بعد توليه الحكم . فنراه تارةً يقارع البيزنطيين ويذود الديار من هجماتهم . وتارةً اخرى يلهو ويتصيد أو يجلس مع الادباء ويحاورهم ويتناشد معهم الأشعار . ويروى أنه وقع في الأسر سنة ٣٥١ للهجرة في اثناء خروجه للصيد . اذا التقى بابن أخت ملك الروم الذي خرج في ألف فارس الى نواحي منبج وكان ابو فراس مع سبعين فارساً فنشبت بينهما معركة غير متكافئة في العدد والعُدد . كانت الغلبة للخصوم . بعد ان أثخن ابو فراس الجراح فيهم . ثم أسر(٩٧٤) وقد أشار الى ذلك في أول قصيدة قالها في الأسر .(٩٧٥)

ولا كنتُ ألقي الألفَ زرقاً عيونها ... بسبعينَ فيهم كلُّ أشأمَ أنكدِ
يقولون : جنّبْ عادةً ماعرفتها ... شديد على الانسان مالم يُعوّدِ
فقلتُ . أما والله لا قال قائلٌ : ... شهدتُ له في الحربِ ألأمَ مشهدِ
ولكن سألقاها . فاما مَنيّةٌ ... هيَ الظنّ . أو بنيانُ عزٍ موطّدِ

نقل بعد أسره الى سجن في « خرشنة » . وكانت جراحه تؤذيه . فكتبَ الى امه . وهي ملاذه الاول . مايعانيه من الام وأحزان .(٩٧٦)

---

(٩٧٣) زبدة الحلب ١ : ١١٩
(٩٧٤) ديوانه ص ٢٦٧
(٩٧٤) ينظر نشوار المحاضرة ١ : ١١١ ، تجارب الامم ٦ : ١٩٣ ، الكامل لابن الاثير ٥ : ٧ ، زبدة الحلب ٢ : ١٣١ .
(٩٧٥) ديوانه ص ٨٥ .
(٩٧٦) ديوانه ص ٢٣٢ .

مصابي جليلٌ . والعزاءُ جميلُ وظني بأنّ الله سوف يُديلُ
جراحٌ . تحاماها الأساةُ . مخوفةٌ وسقمان : بادٍ منهما ودخيلُ
وأسر أقاسيه . وليلٌ نجومهُ أرى كلّ شيء . غيرهنّ . يزولُ
تطول بي الساعات . وهي قصيرةٌ وفي كلّ دهر لاسرك طولُ

ثقل عليه السجنُ . وبرّح به الشوقُ . وانحله الألمُ . ولاسيما بعد أن وضعوه في مكان ضيق وألبسوه الثياب الخشنة . فكتب الى سيف الدولة قصيدةً يبدو من كلماتها أنه يعاتبه .(٩٧٧)

اين المعالي . التي عرفت بها تقولُها دائماً وتفعلُها ؟
ياواسع الدار . كيف تُوسعُها ونحنُ في صخرةٍ تُزلزلُها ؟!
ياناعمَ الثوبِ . كيف تُبدلُه ثيابنا الصُوفُ مانبذلُها ؟!
ياراكبَ الخيلِ . لو بَصُرتَ بنا نحملُ أقيادنا ونثقلُها
رأيت في الضُرّ اوجهاً كرمتْ فارقَ فيك الجمالَ اجملُها
قد أثّر الدهرُ في محاسنها تنكرُها تارةً وتجهلُها

وتمّ فداؤه بعد أربعة أعوام شداد . ولا نظنُّ الابطاء في فكّ أسره كان يعزى الى تغيُّر قلب سيف الدولة عليه كما ذهب بعض الباحثين .(٩٧٨) . بل السبب أن الروم كانوا يحتجزون عدداً كبيراً من اسرى المسلمين . ولم يكن بمقدور سيف الدولة أن يفديهم جميعاً لضيق مابيده من مال . ولم يُرِدْ أن يفكّ أسر أبي فراس مع فئة قليلة دون ذلك العدد الهائل وحينما توفر لديه المال الكافي سنة ٣٥٥ للهجرة تمت المفاداة .(٩٧٩) . وكان من بين الأسرى ابو فراس . ومحمد بن ناصر الدولة . والقاضي ابو الهيثم عبدالرحمن بن القاضي ابي حصين .

عاد أبو فراس الى حلب ليعيش بين أهله وذويه . وقد عرف من كان معه ومن كان عليه . . وشاءت الاقدار أن يتوفى سيف الدولة بعد سنة من هذه العودة أي في اوائل سنة ٣٥٦ للهجرة . فأخذ ابو فراس يطالب بالامارة . فدخل حمص وأقام بها يصرف امورها مما أوغر عليه صدر ابن اخته ابي المعالي بن سيف الدولة . فأوفد له جيشاً حاصره حتى قتل قرب حمص سنة ٣٥٧ للهجرة .

---

(٩٧٧) ديوانه ص ٢٤٢

(٩٧٨) شاعر بني حمدان ص ٧٢

(٩٧٩) نفوار المحاضرة ١ ، ٢٨١ ، وينظر الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني ص ٨٤ ، وابو فراس الحمداني للدكتور عبدالجليل حسن عبدالمهدي ص ١١٤ .

شعره :

وصل الينا ديوان أبي فراس وشرحه برواية معلمه أبي عبدالله الحسين بن خالويه . والقارىء في هذا الديوان يتنقل بين الفخر والحماسة . والمديح . والرثاء . والغزل . والوصف ... وهو في أغلبها مجيد مبدع . يجمع بين السهولة والجزالة والحلاوة .

كان لقومه مجداً عظيماً في المآثر الحميدة والسجايا النبيلة الى جانب شيم الفتوة والفروسية والنضال . وهم كما قال(٩٨٠) :

لئن خُلق الأنام لحسن كأس ومزمار وطنبور وعود
فلم يُخلق بنو حمدان الا لمجد أو لبأس او لجود

عاش في كنف ابن عمه الفارس المقدام سيف الدولة . وتعلم في شبابه فنون القتال وضروب المجالدة والمصاولة . وقد بالغ حين جعل تمائم الاطفال في قومه من الرماح والسيوف :(٩٨١)

ونحن أناسٌ . يعلم الله أننا اذا جمع الدهرُ الغشومُ شكائمة
اذا وُلِدَ المولود منا فانما الـ أسنةُ والبيضُ الرقاقُ تمائمة

ويكثر من الافتخار بنفسه . ومكانته بين قومه . في قِرى الضيوف . ومحاربة الاعداء . ضرباً بالسيوف :(٩٨٢)

سلي فتياتِ هذا الحيّ عني يقلنَ بما رأينَ وما سمعنة
ألستُ أمدُهم لذويّ ظلاً ألستُ أغذهم . للقوم . جفنة
ألستُ أقرّهم بالضيف عيناً ألستُ أقرّهم في الحرب لهنة(٩٨٣)
متى مايدنّ من أجلِ كتابي أمتُ بين الأعنة والأسنة
وموتٌ في مقام العز أشهى الى الفرسان من عيشٍ بمهنة(٩٨٤)

---

(٩٨٠) ديوانه ص ٩٧
(٩٨١) ديوانه ص ٢٨٦
(٩٨٢) ديوانه ص ٢٩٢
(٩٨٣) اللهنة : الطعام الذي يتعلل به قبل الغداء
(٩٨٤) المهنة : الامتهان والذل

ان شعره أنشودة في الفتوة والفروسية والاقدام . ولا عجب حين ينعته ابن شرف القيرواني بفارس الميدان وصاحب الضرب والطعان(٩٨٥) . ويسميه الدكتور زكي المحاسني شاعر الفرسان وفارس الشعراء .(٩٨٦)

ومما يلاحظ أن فخره في الغالب يأتي ممزوجاً بمديحه الذي خصّصهُ لقومه وأقاربه . ولاسيما لأميره الهمام سيف الدولة الذي فاق الناس سياسةً ورياسةً وجوداً وبطولةً وفروسيةً . مثل قوله :(٩٨٧)

ولـي عـنـد الـغـداةِ بـكـلّ أرض ديون في كـفالات الرماح
اذا الـتـفـتُ عـلـيَّ سراةُ قومي ولاقـيـنـا الـفوارس في الـصّباح
يخفُّ بها الى الغمرات طود من الأطوادِ ممتنع النواحي
أشدُّ الـفارسـيـن وان أبرّوا أخـفُّ الـفارسـيـن الى الـصّياح
لـسـيـف الدولة الـقدْح المعـلّى اذا استبق الملوكُ الى القداح
أسـيـفُ الدولة الـحـكـم المرجّى أفي مدحي لقومي من جناح ؟

لقد اصبح الشعر عنده عنصراً من عناصر الفروسيةاو عنصراً مكملا لها . فلا غرابة حين نجد لغة الحماسة تسري الى شعره في مواقف الحزن والاسى واللوعة . مثل قوله في رثاء ابن عمه أبي وائل تغلب بن داود :(٩٨٨)

ما أنا أبـكـيـه . ولـكـنّـمـا تبكيه أطرافُ القنا الذابل
دانٍ الى سُبْلِ النّدى والعلى ناءٍ عـن الـفـحـشاء والباطل
ارى المعالي . اذ قضَتْ نحبهُ تـبـكـي بـكاءَ الوالـه الـثاكـل
الآنـسُ الـبـاسـلُ والـمعارض الـ ـسهاطلُ عـند الزمـن الماحـل
كان ابن عمي . ان عرا حادثٌ كالـلـيـث أو كالـصّارم الـصاقـل

ونجد لغة الفروسية أيضاً في غزله الذي شغل حيزاً بارزاً في ديوانه . فها هو ذا يجعل للهوى خيولاً مغيرة . وقناً هي كتب الغرام . وسيوفاً هي رسائله ولواحظه . وسهاماً هي الفاظه . ويصور مواقع الحب كثيرة القتلى دون ان يشهر سيف أو يهتز رمح :(٩٩٠)

(٩٨٥) أعلام الكلام ص ٢٥
(٩٨٦) شعر الحرب في أدب العرب ص ٢٥٠
(٩٨٧) ديوانه ص ٦٨
(٩٨٨) ينظر ابو فراس الحمداني للدكتور النعمان القاضي ص ١٤٩
(٩٨٩) ديوانه ص ٢٠٦ .
(٩٩٠) ديوانه ص ٢١٥ . وينظر ابو فراس الحمداني للدكتور النعمان القاضي ص ٢٧٢ .

كأنّ ابنة القيسيّ في أخواتها خذولَ تراعيها الظّباءُ الخواذلُ(٩٩١)
وهبتُ سُلوّي . ثم جئتُ ارومَةً ومن بدون مازمتُ القنا والقنابلُ(٩٩٢)
هواناً غريبتْ شُزّبَ الخيل والقنا لنا كُتُبٌ والباتراتُ رسائلُ
أغرنّ على قلبي بخيلٍ من الهوى فطاردنَ عنهنّ الغزالَ المغازلُ
بأسهم لفظٍ . لم تركّبْ نصالها وأسياف لحظٍ . ماجلتها الصياقلُ
وقائعُ قتلى الحبّ فيها كثيرةٌ ولم يشتهرْ سيفٌ . ولا هُزّ ذابلُ
أراميتي كلُّ السّهام مصيبةٌ وأنت لديّ الرامي وكلي مقاتلُ

ولابي فراس شعر في الوصف . وهو قليل . لم يأت فيه بشيء جديد . من ذلك قوله . وقد جلس في بستانٍ بديعٍ بأشجاره وأزهاره . والماء صافٍ في برك جميلة تهبُّ عليه الرياح فتجعله شبيهاً بحلقات الدروع .(٩٩٣)

أنظرْ الى زهر الرّبيعِ والماء في برك البديعِ
واذا الرّياحُ تجرّتْ عليهِ في الذّهاب وفي الرجوعِ
جرّتْ عليه بنوضِ الصفا نسج بيننا حلقَ الدروعِ

ولعل روميّاته التي نظمها حينما كان أسيراً من أوجود الشعر الذي اتحف به الأدب العربي وهي « لباب شعره . وصفوة انتاجه »(٩٩٤) حتى قال بلاشير: « وقصائد الروميات ممتازة ببساطتها . وجزالتها . وبالعاطفة الانسانية التي تسودها . وهي التي جعلت أبا فراس سيد شعراء العاطفة الإنسانية . وليس في عصره فحسب . بل في كافة عصور الأدب العربي »(٩٩٥) وقد تنوّعتْ ألحانه الرقيقة التي شدا بها في اسره بين الفخر والحماسة والحنين الى الأهل والاصحاب والشكوى والرثاء والغزل والحكمة ... ولعلّ أجمل رومية تحمل دِفْقَ العاطفة وفيضَ الخاطر قصيدته التي يقول في مطلعها :(٩٩٦)

أراكَ عصيَّ الدّمع شيمتُكَ الصّبرُ أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمرُ

---

(٩٩١) الخذول : الظبية المتخلفة عن صواحبها المنفردة عن القطيع .
(٩٩٢) القنابل : الواحد القنبل والقنبلة ، الطائفة من الناس او الخيل .
(٩٩٣) ديوانه ص ١٨٩
(٩٩٤) في الادب العباسي ص ٣٩٩ .
(٩٩٥) الادباء العشر ص ٢٨٣
(٩٩٦) ديوانه ص ١٥٧

ومنها :

سيذكرني قومي اذا جدّ جدُّهم ... وفي الليلة الظلماء يفتقدُ البدرُ
فانْ عشتُ فالطعنُ الذي يعرفونه ... وتلك القنا والبيضُ والضُمّرُ الشُقرُ
وان متُّ فالانسان لابدّ ميّتٌ ... وانْ طالتْ الايام وانفسحَ العمرُ
ولو سدّ غيري ماسددتُ اكتفوا بها ... وما كان يغلو التبرُ لو نَفقَ الصُفرُ
ونحن أناس لا توسُّط عندنا ... لنا الصدر دونَ العالمينَ أو القبرُ
تهونُ علينا في المعالي نفوسُنا ... ومنْ خطبَ الحسناءَ لم يَغلها المهرُ
أعزُّ بني الدنيا وأعلى ذوي العلى ... وأكرمُ من فوق التراب ولا فخرْ

انها صادرة عن معاناة صادقة . ترفدها تجربة شعورية مريرة . منبعثة من فؤاد مكلوم . ونفس هدّها الحزن . وانهكها الألم . ونفّر البعادُ الكرى عن عيني صاحبها . كما يقول في رومية أخرى :(٩٩٧)

أبيتُ كأنّي للصبابةِ صاحبٌ ... وللنوم مَذبانَ الخليطِ مُجانبُ
وكم من حزينٍ مثلِ حزني ووالهٍ ... ولكنّني وحدي الحزينُ المراقبُ
ولستُ ملوماً انْ بكيتكَ من دمي ... اذ قعدتْ عني الدُموعُ السّواكبُ

لقد أحاطت برومياته مشاعر وأحاسيس نابعة من الحالة المأساوية التي عاشها تحت وطأة الألم . وعذاب الأسر . ومرارة الاغتراب . في خلال الأعوام الأربعة التي قضاها منصفداً بين جدران السجن .

ان شعر أبي فراس ـ على العموم ـ وجداني يتسم بالعذوبة واليسر وقوة التأثير في المتلقي . وحسبنا قول أبي منصور الثعالبي : « وشعره مشهورٌ . سائر بين الحسن والجودة . والسهولة والجزالة . والعذوبة والفخامة . والحلاوة والمتانة . ومعه رواء الطبع . وسمة الظرف . وعزّة الملك . ولم تجتمع هذه الخلال قبله الاّ في شعر عبدالله ابن المعتز ... وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز » (٩٩٨) .

ونختتم هذه الترجمة الوجيزة بقول الدكتور زكي مبارك : « أبو فراس الوتر الحنّان الذي خلّد على الدهر مجد الألم ومجد الأنين . أبو فراس الذي أبكى كلّ عين . وأحزن كل قلب . وشغل كلّ بال . ابو فراس الأسد الذي استعذب الدمع بعد الزئير . وعلّمته الليالي كيف تعصف الخطوب بأحلام الرجال »(٩٩٩) .

(٩٩٧) ديوانه ص ٢٥
(٩٩٨) يتيمة الدهر ١ : ٤٨
(٩٩٩) الموازنة بين الشعراء ص ٢٠٥

أبو بكر الصنوبري

؟ ـ ٣٣٤ هـ

اشتهر كثير من الشعراء في أدبنا العربي بلون من ألوان الأدب أو بشكل من أشكاله . مثل أبي نواس في خمرياته. وأبي العتاهية في زهدياته . وأبي فراس في روميّاته . والشريف الرضي في حجازياته . والصنوبري في روضياته ...

سيرته :

هو احمد بن محمد بن الحسن بن مرّار الضبّي(١٠٠٠) . يكنّى أبا بكر . وقد غلبت عليه نسبة « الصنوبري » . زعم هو نفسه أنّ جده « كان صاحب بيت حكمة من بيوت حكم المأمون فجرت له بين يديه مناظرة . فاستحسن كلامه وحدّة مزاجه وقال له : « إنّك لصنوبري الشكل . يريد بذلك الذكاء وحدّة المزاج(١٠٠١) » . وقيل . انه لقب به اشارة الى صورته المخروطية التي تشبه ثمرة شجرة الصنوبر(١٠٠٢). ونراه يفخر بهذا اللقب في شعره قائلاً :(١٠٠٣)

اذا غزيتنا الى الصنوبر لم ... نفز الى خامل من الخشب
لا بل الى باسق الفروع علا ... مناسباً في أرومة الحسب

أما نسبه الى قبيلة ضبّة العربية المشهورة فقد افتخر به فقال(١٠٠٤) :

لو لم يكنْ لي في ذؤابة جندف ... نسبٌ سوى الآداب كنتُ عريقا
أو لستُ أطولها فروعاً في العلى ... وأمدّها في المكرمات عروقا
نحن الذين بنتْ لنا آباؤنا ... مجداً يجوز بناؤه العيّوقا(١٠٠٥)

(١٠٠٠) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١ ، ٤٥٦ ، الوافي بالوفيات ٧ ، ٣٧٩ ، فوات الوفيات ١ ، ١٢٢ .
(١٠٠١) ديوان الصنوبري ص ٥ .
(١٠٠٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١ ، ٣٦٤ تاريخ الأدب العربي ، العباسي الثاني ص ٣٤٧ .
(١٠٠٣) ديوان الصنوبري ٤٥٦ .
(١٠٠٤) ديوان الصنوبري ص ٤٠٤ .
(١٠٠٥) العيّوق ، كوكب مضيء بحيال الثريا في ناحية الشمال .

نـفـشى الـبلاد بـعارض مـتراكـم فـسـلـسـلـت ذُراه صواعـقاً وبروقا
قوم اذا دلـفـوا لـحـرب مزّقوا هام الـعدا بـسـيوفـهـم تـمـزيـقا
فغدوا ، فريقاً يقتلون اذا همُ راموا النزول ، ويأسرون فريقا

وُلد الصنوبري في أنطاكية . ونشأ وكَبُر في حلب . ولم تُشر المصادر الى سنة ولادته والى طبيعة الدراسة التي تلقاها . ولكن القارىء يستدلُ من مراجعة شعره انه كان عارفاً بعلوم اللغة العربية وآدابها معرفة جيدة ومتقنة . وقد شهد الذين ترجموا له بتفوقه في ميدان المعرفة . قال أحدهم ، كان إماماً بارعاً في الأدب . فصيحاً مفوهاً(١٠٠٦) .

أجاد نظم الشعر وأحسن انشاده . وأخذ يتنقلُ بين المدن الرئيسة مثل دمشق والموصل وحمص وطرابلس والرقة .. ويُقدّمُ شعره بين يدي أمرائها وكبار رجالها ثم يعود الى حلب . وقد تعرّف على سيف الدولة في الموصل قبل تأسيس دولته في حلب(١٠٠٧) ومدحهُ بشعره وأشاد ببطولته حينما كان يُنازل الروم مع الجيش الذي يذهب لحماية الثغور ورد كيد المعتدين على الديار الاسلامية .

وعندما تولىّ سيف الدولة حلب ، قرّب اليه الشعراء وأكرمهم . وكان الصنوبري واحداً منهم . اذا اتخذه نديماً من أخلص ندمائه . وجعله أميناً على مكتبته في قصره .

عاش الصنوبري في يسر ونعيم في قصر منيف يحيط به بستان كبير فيه أنواع الأشجار والأزهار والرياحين . وكانت له صلات كثيرة وصداقات وثيقة مع عدد من العلماء والأدباء . مثل الشاعر كشاجم . والعالم اللغوي على بن سليمان بن الأخفش الصغير .

وتوفي سنة ٣٣٤ للهجرة وقد ناهز الستين(١٠٠٨) .

شعره :

كان الصنوبري مكثراً في نظم الشعر . وقد عُني به الكثيرون وهو على قيد الحياة ورووه عنه . منهم تلميذه الشاعر أبو العباس الصُفري وعنه رواه القاضي أبو

(١٠٠٦) النجوم الزاهرة ٣ ، ٢٨٧ .

(١٠٠٧) وصف الطبيعة في شعر الصنوبري ، فواز أحمد طوقان ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، م ٤٤ / ٣ ، ٥٧٦ .

(١٠٠٨) العصر العباسي الثاني ص ٣٥٣ ، الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني ص ١٠٦ .

عمر عثمان بن عبدالله الطرسوسي(١٠٠٩) . واهتم به معاصره أبو بكر الصولي فجمعه ورتّبه حسب الحروف الهجائية في مئتي ورقة(١٠١٠) . ولم يصل من هذا الديوان إلاّ جزء يشتمل على شعره من قافية الراء حتى القاف . واضاف اليه محققه تكملة للشعر الذي وجده في المصادر المخطوطة والمطبوعة . ثم قام باحثان آخران بصنع تتمة له ونشراها في كتاب مستقل (١٠١١) .

اتصل الصنوبري بكثير من رجال عصره . وخصهم بمديحه . وامتاح فضلهم ونوالهم . وكان معجباً بسيف الدولة وشجاعته وشهامته وقوة ارادته وحسن بلائه في محاربة الروم مثل قوله(١٠١٢) :

تركتَ الروم ، بعضهمُ قتيلٌ ... يسيحُ دماً وبعضهمُ أسيرُ
ولما طارَ بالُك أمسِ فيهم ... هفوا خزعاً كما تهفو الطيورُ
فقد ماتوا وما قُبروا ولكنْ ... كأنّ بيوتَهُمْ لهمُ قبورُ
لسيفِ الدولةِ السيفِ الذي للـ ... ـمنايا في غرازيُه زئيرُ

هذه الأبيات كما يلاحظ خلت من التجديد والابتكار . وهي واضحة المعنى . سهلة الالفاظ . تتلائم مع القافية ذات الجرس المختار . ومن الذين مدحهم بكثرة . وأسبغ عليهم هالة من الجلالة والعظمة أبو الحسين علي بن محمد بن حمزة الهاشمي . وكان موسراً له ضياع يتوسّطها قصر جميل تحف به الرياض البديعة في مكان يسمّى « فارث » . وكان الصنوبريّ يزوره بين حين وآخر ويجالسه ويتنعّمُ معه بأطايب الحياة وينال رفده . ويُقدّم بين يديه شعره . مثل قوله من قصيدة عينية تجاوزت سبعين بيتاً(١٠١٣) :

يومٌ بفارثَ حُسْنُه لا يُدفعُ ... يومٌ أغرُّ من الزّمانِ مُسلّمُ
جالستُ فيه أبا الحسين بمجلسٍ ... خلعَ الرّبيعُ على زباهُ تُخلعُ
جلساؤه فيه هزبرٌ ضيغمٌ ... وغضنفرٌ ضارٍ وأغلبُ أروع

(١٠٠٩) ينظر ديوان الصنوبري ص ١٨٧ هامش ٢

(١٠١٠) الفهرست ص ٢٣٩ .

(١٠١١) حقق الديوان وصنع له تكملة الدكتور احسان عباس (بيروت ١٩٧٠) . أما التتمة فهي من صنع لطفي الصقال ودرية الخطيب (حلب ١٩٧١) .

(١٠١٢) ديوان الصنوبري ص ٧٤ .

(١٠١٣) ديوان الصنوبري ص ٣٢٤ .

فخلعتْ فيه بعذارٍ لهوٍ لم يكن في غيره من قبلِ ذلك يخلعْ

وأخذ الرثاء مكاناً كبيراً في ديوانه . ولا سيما في بنته « ليلى » التي رثاها بقصائد ومقطوعات تطفح بالحزن والأسى وتمتلىء بالبكاء والأنين . يستبكي فيها كلَّ شيء حتى الطيور(١٠١٤) :

سأبكي . مابكى القمريُّ . بنتي ببحرٍ من دموعي بل بحورِ
ألستُ أحقَّ أنْ أبكي عليها اذا بكتِ الطيورُ على الطيورِ

وكانت ليلى هذه ابنته الوحيدة ، ولذلك كان مصابه فيها كبيراً . وقد زيَّنَ قبَّة قبرها بباب قِنسرين بحلب بأبيات من نظمه يتجلَّى فيها الألم العميق الصادق . اذ جعل على كل جانب من جوانب القبة الستة بيتين(١٠١٥) . من ذلك قوله :

آنسَ الله وحشتَكْ رحمَ الله وَحْدتَكْ
أنستَ في صحبةِ البِلى أحسنَ الله صحبتَكْ

وكان مرهف الحسّ . بارعاً في التعبير عن خوالج نفسه . فمن جميل غزله الذي صوَّرَ فيه شوقه وحنينه قوله في الأبيات الآتية . ويلاحظ القارىءُ فيها تفننه بالصورة ومزجها بألوان لطيفة في تشكيل جزئياتها(١٠١٦) :

تزايد ماألقى . فقد جاوزَ الحدا وكان الهوى مزْحاً فصار الهوى جِدّا
وقد كنتُ خِلْداً ثم أوهنني الهوى وهذا الهوى مازال يستوهنُ الجلدا
فلا تعجبي من غَلْبِ ضعفكِ قوَّتي فكم من ظِباءٍ في الهوى غلبتْ أسدا
غلبتم على قلبي فصرتمْ أحقَّ بي وأملكَ لي مِنّي فصرتُ لكم عبدا
جرى حُبُّكمْ مجرى حياي ففقدكم كفقدِ حياتي . لارأيتُ لكم فقدا

وله شعر في وصف الخمرة يقترن بالغزل . وقد مضى فيه على سُنن معاصريه من الاكثار من التشبيهات . وذكر أوصاف السُّقاة ومفاتنهم وجمال هيئاتهم وأثرهم في نفوس الشاربين . ويبدو أنه قد أقلع عن ذلك في وقت مبكر . وربما كان لموت ابنته ليلى أثر في ترك اللذة واللهو والشرب . اذ نراه يقول(١٠١٧) :

(١٠١٤) ديوان الصنوبري ص ١٠٤ .
(١٠١٥) ديوان الصنوبري ص ٥١٤ ، وينظر تهذيب ابن عساكر ١ ، ٤٥٦ ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٤ ، ٢٤ .
(١٠١٦) ديوان الصنوبري ص ٤٧٢ .
(١٠١٧) ديوان الصنوبري ص ٢٥٨

كنتُ أحبُّ النبيذَ جدّا فصارَ حُبّي النبيذَ بُغضا
فلستُ أرضاهُ لي شرابا والحمدُ للهِ . لستُ أرضى

وينتقل الى نظم أشعار في الزهد ، يدعو فيها الى نبذ المعاصي والكف عن الآثام . ويدعو الى التوجه نحو الطريق القويم والسلوك السليم ، مثل قوله :(١٠١٨)

فأكثرْ ما استطعتَ الحلمَ . اني رأيتُ الحلمَ من كرم الطباع
ولا تعجلْ اذا حاولتَ أمراً تنلْ مارُمتَ من غيرٍ امتناع
وما لم تستطعهُ فعدْ عنه وأوضعْ في سبيل المستطاع
فرزقكَ سوف تدركُهُ جميعاً ولو أضحى بأفواه السباع
فلا تتبعْ أخا سفهٍ وذعْهُ وكنْ للحرِّ دهرَكَ ذا اتباع

انّ شهرة الصنوبري ماجاءت الاّ من الشعر الذي خصّ به الطبيعة ، « حتى ضُرب المثل بروضياته . وحقاً كان ابن الرومي مشغوفاً بالطبيعة ووصف الرياض في الربيع ، ولكنه لم يعشْ لهذا الموضوع معيشة الصنوبري ولا اتخذ له بستاناً يزرع فيه الورود والرياحين والأزهار ، ويتعهدها تعهد المحب الوامق كما صنع الصنوبري . فهو بحقٍ شاعر الطبيعة . عاش يتغذى خياله وروحه منها ، واصفاً لحدائقها وبساتينها ورياضها ، حتى ليصبح ذلك كل شغله وكل وكده من حياته »(١٠١٩) ولذلك عدّة أدم متزأول شاعر للطبيعة في الأدب العربي(١٠٢٠) .

لقد هام بالطبيعة ، وانجذب اليها ، وتعاطف معها ، وتجاوب معها تجاوباً وجدانياً ، وامتزج بها حتى أصبح جزءاً متماسكاً منها . وقد لمس ذلك صديقه الحميم كشاجم ، وقال له(١٠٢١) :

فألهتكَ بساتينٌ كَ ذات النور والزهرِ
وما شيدتْ للخلـ ـوة من دارٍ ومن قصرِ
وما خيّمتَ من غرسٍ ومن خرْبٍ ومن بذرِ
وتارنيجٍ وريحانٍ جنيٌّ طيبِ النشرِ

(١٠١٨) ديوان الصنوبري ص ٣٢٢ .
(١٠١٩) تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الثاني ص ٣٦٢ .
(١٠٢٠) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ٤٣٠ .
(١٠٢١) ديوان كشاجم ص ٢٢٩ .

كان مولعاً بالربيع . ينتظره بشوق ولهفة ، لأنه يُرضي حاسته البصرية المفتونة باستجلاء الألوان . النهمة الى النُور والنَور . كما يُرضي أذنه التي تطربها أصوات الطبيعة يغنيها القمري والفاختة ... أكثر مما يطربها العود والطنبور . وكما يرضي أنفه الذي يمتليء بأريج الربيع فلا يجد معنىً للمسكِ من بعده ولا للكافور . وكما يُرضي بعد ذلك كل نفسه فتطمئن اليه »(١٠٢٢) . مثل قوله(١٠٢٣) :

يا ريمُ قومي الآنَ ويحكِ فانظري ... ما للرُبى قد أظهرتْ إعجابها
كانتْ محاسنُ وجهها محجوبةً ... فالآنَ قد كشف الربيعُ حجابها
وردٌ بدا يحكي الخدودَ ونرجسٌ ... يحكي العيونَ اذْ رأتْ أحبابها
والزَرعُ شبْهُ عساكرٍ مصطفةٍ ... قد فوّقتْ عن قسيها نُشّابها
والسَرْوُ تحسبه العيونُ غوانياً ... قد شمّرتْ عن سوقها أثوابها
وكأنَّ إحداهنَّ من نفح الصَبا ... خودٌ تلاعبُ مَوْهناً أترابها
والنهرُ قد هزّتْهُ أرواحُ الصَبا ... طرباً وخرَّتْ فوقهُ أهدابها
لو كنتُ أملكُ للرياضِ صيانةً ... يوماً لما وطئَ الثَامُ ثُرابها

إنَّ لوحاته في الرياض الناضرة جميلةٌ وبهية تستجذب الرائي وتُسحره ؛ لأنها مرسومة بيدٍ ماهرة تعرف كيف تُشاكل بين الألوان وتستجليها واليك الأبيات الآتية وهي تعطيك مجموعةً من الأزهار في تشكيل لطيف بين أقحوان . وسوسن . وشقيق . وبهار . وأذريون . ونرجس . وخيري . ونسرين . وورد . وياسمين . وخزامى . وقيصوم (١٠٢٤) :

أقحوانٌ وسوسنٌ وشقيقٌ ... وبهارٌ يجنى وأذريونُ

وبدا النرجسُ البديعُ كأمثا ... لِ عيونٍ ترنو اليها عيونُ
ماترى جانبَ الهنيِّ وقد أشـ ... ـرقَ فيه الخيريُّ والنسرينُ
صاحَ فيه الهزارُ . ناحَ به القمـ ... ـريُّ . غنّى في جوّه الشفنينُ
فلهذا قيصومُه وخزاما ... ةُ وذا الوردُ فيه والياسمينُ

(١٠٢٢) شعر الطبيعة في الادب العربي ص ٢٠٦ .
(١٠٢٣) ديوان الصنوبري ص ٤٥٩ .
(١٠٢٤) ديوان الصنوبري ص ٤٩٥ .

وحظيت المياه . متمثلة في السحاب والأنهار والغدران والسواقي والجداول والبرك . بنصيب كبير من شعر الصنوبري . فها هو ذا يصف بركة وصفاً جميلاً يذكرنا فيها بأبيات أبي عبادة البحتري في وصف بركة المتوكل . وقد حالفه التوفيق في عرض صورتها (١٠٣٥) :

سقى حلباً سافكُ دمعهُ ... بسطيءُ الرقوء اذا ماسفكْ
مياديهُ بُسطهُنَّ الرياض ... وساحاتُه بينهنَّ البركْ
ترى الريخ تنسخ من مائهِ ... دروعاً مضاعفةً أو شبكْ
كأنَّ الزجاجَ عليها أديبَ ... وماءَ اللجينِ بها قد سُبكْ
هو الجوُ من رقَّة غيرَ أنَّ ... مكانَ الطيورِ يطيرُ السمكْ
وقد نُظِمَ الزهرُ نظمَ النجوم ... فمفترقُ النظمِ أو مشتبكْ
كما درَّجَ الماءَ مرُّ الصَّبا ... ودبَّجَ وجهَ السماءِ الحبكْ

وفتح الصنوبري الباب للشعراء في وصف الثلج والتغني بجمال منظره . ولا سيما حينما يتساقط على الأرض كاللؤلؤ المنثور أو القطن المندوف . وهذا ماأكده الدكتور سيد نوفل بقوله : « ويُعدُ الصنوبري أول من تغنَّى بالثلج وبدائعه »(١٠٣٦) . مثل قوله (١٠٣٧) :

تعالى الله خالقُ كلِّ شيءٍ ... بقدرتهِ وبارئ كلِّ نفسِ
لقد أضحى جميعُ الأرضِ تجري ... كواكبُهُ بسعدٍ لا بنحسِ
ألم تر كيف قد لبستْ زباها ... من الثلج المضاعف أيَّ لبسِ
ثيابا لاتزالُ تذوبُ لينا ... اذا الأيدي عرضْن لها بلمسِ
كأنَّ الغيمَ مما بثَّ منه ... على أرجائها أنداف ورسِ

نالت الثلجيات اعجاب شعراء العراق . وكان الوزير الحسن بن محمد المهلبي في بغداد ينشر في مجالسه قصائد الصنوبري وينسج على منوالها (١٠٣٨) .

(١٠٣٥) ديوان الصنوبري ص ٤٨٤ .

(١٠٣٦) شعر الطبيعة في الأدب العربي ص ٢١٥ . وينظر فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص ٦٥٦ . اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري ص ٢٦٤ .

(١٠٣٧) ديوان الصنوبري ص ١٧٩ .

(١٠٣٨) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ٤٧٣ . وتنظر أبيات المهلبي في وصف الثلج في يتيمة الدهر ٢ : ٢٢٨ .

لقد كان الصنوبري متدفقاً في عطائه الشعري بأسلوب واضح جلي . لا لبس فيه ولا غموض ، وكانت الألفاظ والمعاني متناسقه عنده الى جانب توافقهما مع الموسيقى . وكثيراً مايستعين بالتشبيهات والاستعارات في تحسين صوره وتوضيحها مع استخدام المحسنات البديعية ولا سيما الجناس .